كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.م.د. نهاد فخري محمود

اسم المادة باللغة العربية : النقد الأدبي القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Old Criticism

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: النقد في عصر ما قبل الاسلام

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية: Criticism in the pre-Islamic era

مقرر الفصل الأول

النقد في عصر ما قبل الاسلام

ظهر النقد في عصر ما قبل الاسلام هينًا سهلًا ساذجًا، لا يمكن لنا أن نطلق عليه نقدًا بالمفهوم الحقيقي للنقد، إنما ما صدر عن النقاد يمثل آراء ونظرات وخواطر فرضتها أحاسيس النقاد تجاه المفردة، لذا يمكن أن نطلق عليه نقدًا فطريًا انطباعيًا قائمًا على الإحساس بأثر الشعر في النفس والحكم مرتبط بهذا الإحساس قوة وضعفًا .

في ضوء ما تقدم يمكن أن نتلمَّس هذه الملامح النقدية في جملة أمور:

١ـ الأحكام النقدية:

لم يكن النقد محصورًا على طائفة محددة، بل شمل من له دراية بالنظم ومعرفة أحوال العرب، وألف لغتها، لذا قد يكون الناقد شاعرًا كالنابغة أو حاكمًا كالنعمان بن المنذر أو راوية للشعر، أي أنَّ دائرة النقد تتسع لأكثر من هذه المسميات .

روى الأصمعي أنَّ النابغة كانت تضرب له قبَّةٌ بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء، فتعرض أشعارها عليه، فأتاه الأعشى، ثم أتاه حسان فأنشده:

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن بالضحى واسيافُنا يقطرنَ من نجده دَمَا

وَلدنا بني العنقاء وابني محرَّقٍ فأكرم بنا خالًا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة: (أقللت أسيافك، ولمعت جفانَك، يريد قوله" الغرُّ" ولو قال البيض فجعلها بيضًا كان أحسن، إلا أن الغرَّ أجلُّ لفظًا ... الخ .

وروايات أخرى أن النابغة اعترض على قوله (يقطرن)؛ لان في ذلك إقلال في القتل ولو قال: (يجرين) كذلك اعترض على افتخاره ممن وَلد ولم يفتخر بمن وَلده .

- هذه اللمحة النقدية من لدن النابغة تجاه شعر حسان أثارت انتباه النقاد المحدثين فهذا الأستاذ طه أحمد ابراهيم يرفض هذه الرواية؛ لأنَّ ما فيها من نقد تأباه طبيعة الاشياء، إذ لم يكن الجاهلي يعرف جمع التصحيح وجمع التكسير وجموع القلَّة وجموع الكثرة، ولم يكن له ذهن علمي يفرق بين هذه الاشياء، كما فرَّق بينها ذهن الخليل وسيبويه.

أما الدكتور طه الحاجري، فيرى أنَّ ما فيها لا يدعو الى الشك القائم على معرفة جموع القلَّة أو الكثرة، فالنابغة ميَّز بحسه اللغوي بين استخدامين (أسياف) و(سيوف) و(جفنات) و(جفان)، فلاحظ في الأولى دلالة القلة وفي الثانية دلالة الكثرة، ومعرفة كهذه ليست بعيدة عن عرب الجاهلية عامة وشعرائهم خاصة.

أما الدكتور ناصر حلاوي فيرى (أنَّ الكلمة في النص الشعري لا ينظر الى دلالتها المعجمية، بل الى دلالتها الرمزية الإيحائية، وعلى هذا، فإنَّ كلمة (أسياف) يمكن أن تفهم بدلالتها الرمزية القائمة على الشجاعة والإقدام والنجدة والقتل، فالرواية تدل على أنَّ النقد في ذلك العصر كان يوجه عنايته للألفاظ واستعمالاتها ودلالاتها في السياق الذي ترد فيه.. أما الفخر بالأولاد من دون الآباء فهو نقد لا يمت بصله الى الفن الشعري، إنَّما هو نقد اجتماعي يرتبط بالأعراف الاجتماعية.

ويروى أنَّ الخنساء أنشدته قولها:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداةُ به كأنَّه علمٌ في رأسه نار

فقال لها: لولا أنَّ أبا بصير انشدني آنفًا لقلت إنك أشعر العرب، فغضب حسان فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك فقال له النابغة: يا ابن أخي انك لا تحسن أن تقول:

فإنَّك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أنَّ المنتأى عنك واسع

خطاطيفُ حجنٌ في حبال متينة تمدُّ بها أيدٍ اليك نـــــــوازع

يقال: إنَّ حسان بن ثابت خنس.

ويذكر أبو الفرج أنَّ عبدالله بن قتادة قال: " كنت مع النابغة بباب النعمان، فقال لي، هل رأيت لبيد بن ربيعة فيمن حضر؟ قلت: نعم .قال أيهم اشعر ؟ قلت الفتى الذي رأيت من حاله كيت وكيت، فقال: اجلس بناحيتي حتى يخرج الينا، قال فجلسنا، فلما خرج قال له النابغة: اليَّ يا ابن أخي، فأتاه، فقال: أنشدني، فأنشده قوله:

ألم تُلمِم على الدِّمنِ الخوالي لسلمى بالمذانب فالقفالِ

فقال له النابغة: أنت أشعر بني عام، زدني، فأنشده:

طللٌ لخولةَ بالرَّسيسِ قديمُ فبعاقل فالأنعمينِ رسومُ

فقال له: أنت أشعر هوازن، زدني، فأنشده قوله:

عفتِ الدِّيارُ مُحَلُّها فمقامُها بمنىً تأبَّدَ غولها فرجامُها

فقال له النابغة: اذهب فأنت أشعر العرب".

ومن الأحكام النقدية ما روي أن امرأ القيس وعلقمة الفحل اختصما في أيِّهما أشعر، فاحتكما الى أمِّ جندب، فقالت لهما: قولا شعرًا تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروي واحد، فقال امرؤ القيس:

خليليَّ مُرّا بي على أُمِّ جندب نقضّي لبانات الفؤادِ المعذَّبِ

وقال علقمة:

ذهبت من الهجرانِ في غير مذهبِ ولم يكُ حقًا طولُ هذا التجنبِ

فقالت لامرئ القيس: علقمةُ أشعر منك، قال كيف؟ لأنَّك قلت:

فللسوط الهوبٌ وللساقِ درَّة وللزجرِ منه وقعٌ أخرجَ مهذبِ

فجهدت فرسك بسوطك ومريته، فأتعبته، وقال علقمة:

فأدركهنَّ ثانيًا من عنانه يمر كمرِّ الرائح المتحلبِ

هذه الرواية أثارت انتباه النقاد المحدثين، فهذا الدكتور ناصر حلاوي يقول: " والقصة على النحو الذي يرد في المصادر القديمة لا تدعو للاطمئنان، فالموازنة التي أرادت أم جندب إقامتها بين الشاعرين اعتمدت وحدة الموضوع (وصف الفرس) ووحدة القافية والروي، ومثل هذه الموازنة تبدو غير طبيعية على امرأة بدوية ساذجة تستخدم مصطلحًا عروضيًا (القافية والروي) في زمن لم تكن هذه المصطلحات قد نشأت بعد".

وعليه يمكننا القول إنَّ الموازنة على هذا الأساس لم تنشأ إلا في مرحلة متأخرة بالتحديد عند الآمدي في كتاب (الموازنة بين الطائيين) ومع ذلك قد يكون للقصة أساس من الصِّحة، ولكن ليست على نحو ما رواها المرزباني وغيره، فقد تكون هذه القصة أنَّ أم جندب فضَّلت شعر علقمة ولكن لم يكن التفضيل ولا الموازنة على هذه الأسس التي تشير إليها الرواية، بدليل أنَّ القصة تروى بروايات عدَّة، الأمر الذي دعا الى الشَّك فيها وعدم الاطمئنان إليها.

لذا قال الدكتور طه الحاجري: " وقد يكون في النفس شيء من هذه القصة على أساس أنَّ ما تتضمنه من نقد أشبه بصنيع المتأخرين في النقد والموازنة، ولكنني مع ذلك لا أذهب الى حدِّ انكارها جملة ورفضها رفضًا مطلقًا"

ومن الأحكام النقدية ما روي عن ابن قتيبة أنَّ الحطيئة دخل على عتبة العجلي، فسأله: من أشعر العرب؟ فقال الذي يقول:

ومن يجعل المعروفَ من دون عرضهِ يَفِرْهُ، ومن لا يتَّقِ الشَّتمَ يُشتَمِ

يعني زهيرًا، قال ثم من؟ قال الذي يقول:

مَنْ يسأل الناسَ يحرموهُ وسائلَ اللهِ لا يخيبُ

يعني عُبيدًا، قال ثم من؟ قال: انا".

- وهناك مجموعة احكام صدرت من لدن ربيعة بن خدارٍ الأسدي على مجموعة من الشعراء، وهم الزبرقان، وعمرو بن الأهتم، وعبدة بن الطيِّب، والمخبل السعدي، فقال للزبرقان: (أما أنت فشعرك كلحم أُسخن لا هو أُنضج فأُكل ولا ترك نيئًا فينتفع به)

نفهم من هذا التعليق على أن شعر الزبرقان لم يصل الذروة من النضج والاكتمال ولم ينخفض نحو الحضيض، بل وسط بين الجودة والرداءة.

وقال للمخبل: (أما أنت يا مخبل فإنَّ شعرك قصَّر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم).

وقال لعبدة:(أما أنت فشعرك كمزادةٍ أُحكم خرزها فليس تقطر ولا تُمطر).

ففي القول إشارة الى قوة بناء الهيكل والشكل في القصيدة بحيث لا توجد الكلمة القلقة والقافية المضطربة واللفظة الزائدة.

قال لعمرو: (اما انت فشعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر، فكلما أُعيد فيها النظر نقص البصر).

هذه الآراء النقدية وجدت مكانًا طيبًا في فكر الدكتور إحسان عباس، فقد عدَّ هذه الموازنة من أرقى الأمثلة وأشدها دلالةً على طبيعة النقد الأدبي قبل أن يصبح لهذا النقد كيان واضح، فهو نموذج يجمع بين النظرة التركيبية والتعميم والتعبير عن الانطباع الكلي دون اللجوء الى التحليل، وهذا هو شأن أكثر الأحكام النقدية في عصر ما قبل الإسلام والعصور التي تلته وصولًا الى أواخر القرن الثاني الهجري.

٢ـ أخطاء الشعراء

تشير الأخبار الى أنَّ عرب الجاهلية كانوا يحسنون الإنصات الى الأشعار التي كانت تُنشد في المحافل، وأنهم كانوا يلحظون أخطاء الشعراء، ويلاحظ أنَّ جمهرة ما أخذوه على الشعراء خطأ في القافية، يُعرف بالمصطلح العروضي (الاقواء) ويعني اختلاف حركة الروي في القصيدة الواحدة من الكسر الى الضم، قال ابن سلام عن شعراء الطبقة الجاهلية الاولى: (ولم يقو من هذه الطبقة ولا من أشباهم الا النابغة في قوله:

أمِنْ آل ميّة رائحٌ او مغتدٍ عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوّدِ

زعمَ البوارحُ أنَّ رحلتنا غداً وبذلك خبَّرنا الغرابُ الاسودُ

وقوله:

سقطَ النصيفُ ولم تُرد اسقاطَهُ فتناولتهُ واتقتنا باليدِ

بمخضَّبٍ رُخصٍ كأنَّ بنانَهُ عَنمٌ يكادُ من اللطافةِ يُعقَدُ

يقال: فقدم النابغة المدينة، فعيب عليه ذلك، فلم يأبه لهما حتى أسمعوه إيَّاه في غناء، فقالوا للجارية: إذا صرت الى القافية فرتلي، فلما قالت: (الغرابُ الاسودُ) و (يعقدُ) و (باليدِ) عَلِم وانتبه، فلم يعد فيه. وقال: قدمتُ الحجازَ وفي شعري ضَعفٌ ورحلت عنها وأنا أشعر الناس.

ورصد النقاد الخطأ في الوصف، اذ روي أنَّ المسيَّب بن عَلس أنَّه مرَّ "بمجلس بني قيس بن ثعلبة، فاستنشدوه، فأنشدهم:

ألا أنعِم صباحًا أيُّها الربع واسلم نُحييك عن شُحطٍ وإن لم تكلَّمِ

فلما وصل الى قوله:

وقد أتناسى الهمَّ عند ادِّكارهِ بناجٍ عليه الصَّيعريَّةُ مُكدَمِ

وقال طَرَفَة، وهو صبي: استنوق الجملُ، فقال المسيِّب يا غلام اذهب الى أمك بمؤبِدة، أي داهية، ولحظنا ـ هنا ـ أنَّ الخطأ في نسبة الصيعرية الى الجمل، وهي سمة في عنق الناقة لا البعير.